" توظيف الطبيعة في شعر أبي سرور "

د . حواس بري
جامعة السلطان قابوس

المقدمة :

تمثل الطبيعة جانباً هاماً في حياة الإنسان عموماً وحياة الشاعر على وجه الخصوص، لأن تعامله معها لا يتم على مستوى الفعل والممارسة أو النظرة العابرة التي لا تقدم ولا تؤخر في دنيا الناس، بل التجربة التي يمر بها الشاعر تكون هي المنطلق للكتابة التي تثير المتعة لدى المتلقي عند قراءة ذلك النص الشعري الذي حطم الشاعر من خلاله الواقع ليعيد بناءه من جديد، فجعل الجماد متحركاً وما لا يدرك في العوالم العلوية حدّثك الشاعر عنه، من خلال تلك الصورة التي يقيمها للمقاربة مرة وللمقارنة مرة اخرى، كما نجد الشاعر يوظف الطبيعة في صورها المتحركة، فيوظف منها ما اتصل بالجلال أو ما كان الجمال فيه خلقه وطبعه.

ومن خلال قراءاتي المتتالية واهتمامي بهذا الشاعر أعني الشيخ القاضي/حميد بن عبدالله بن حميد أبي سرور المكنّى بأبي سرور رأيت أن أتناول موضوع الطبيعة في شعره، وفضلت أن أتناولها في الإطار الذي تناولها فيه، اعتمادا على النص، فوجدت الطبيعة، عنده، توظف في الأغراض التقليدية كالمدح والرثاء والفخر ..

وعندما استقصيت شعره وجدت أبا سرور يتحرك في مجال الكون، العالم العلوي وما اتصل به من نجوم وكواكب .. والعالم الأرضي وما وجد فيه من حيوانات، وعالم البحار وما احتوى من أحجار كريمة كالدرر والمرجان..

فوجدت الشاعر سعى ومشى وغاص في هذا الكون وعاد ليكتب نصاً يعتمد الطبيعة أثناء رسم الصورة الفنية و لم أشأ، الوقوف عند كل صورة رسمها الشاعر، فإن ذلك لا يتسع له البحث لذلك لجأت إلى الاكتفاء بعينات خصصت بعضها

للدراسة المتعلقة بتوظيف الطبيعة في الأغراض التي تناولها البحث كالفخر والمدح والرثاء، وبعضها الآخر خصصته بوصفه مصدراً للصورة عند أبي سرور.

أما منهج الدراسة فقد جمعت فيه بين المنهجين الوصفي والتحليلي، أما المنهج الوصفي، فنعني به رصد الظاهرة ثم وصفها، وأما المنهج التحليلي، فقد زاوجت فيه التحليل المتصل بالقضية، موضوع الدراسة، اعتماداً على الصورة الطبيعية الموظفة من قبل الشاعر، والتحليل اللغوي المفسر للنظم المتصل بالتصوير تفسيراً ينتصر إلى كونه ينطلق منها ليعود إليها.

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر وظف من الطبيعة عناصر كثيرة سواء فيما تعلق بالعالم العلوي أو ما اتصل بالارض أو ما كان من البحر، وذلك يدل دلالة قاطعة على ثراء معجمه.

توظيف الطبيعة في شعر أبي سرور

تعد الطبيعة معلماً من المعالم المعتمدة، في اسلوب الشاعر أبي سرور، ويبدو ذلك من خلال توظيفها في الأغراض التي تناولها في شعره كالمدح والرثاء والفخر، وما اتصل بعالمه الحديث أو تعلق بالنهضة العُمانية التي ارتبط اسمها بالسلطان قابوس المعظم -حفظه الله ورعاه -، كيف لا! وقد جعل عُمان تتحول – في زمن قياسي – من درجة الدولة المتواضعة إلى الدولة التي يشار إليها بالبنان، في المحافل الدولية، كونها بنت نفسها بفضل القيادة الرشيدة وتساهم في حل القضايا الشائكة في العالم كقضية السلام وما اتصل بقضايا الوطن العربي أو ما اتصل بالعالم الإسلامي والإنساني.

وكان للشاعر أبو سرور شرف مواكبة مرحلة البناء والتشييد فقيّض شعره لعُمان الماضي وعُمان الحاضر معاً فكان بلبلاً صدّاحاً، يقف على كل غصن من أغصان الشجرة المباركة، حتى صار شعره وثيقة متعددة الجوانب والمعالم وديوان الشاعر على امتداد صفحاته لا يخلو من ذكر عُمان، كونها وطناً يشعر فيه بالأمن والاستقرار، ويعتز بالانتماء إليه بوصفه رمزاً لكل ما هو سام وشريف ولذلك يباهي بعُمان تارة ويفخر أخرى ويتحدى ثالثة. وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني وغيرها في إطار التصوير اللغوي الذي يستمد مادته من الطبيعة كونها النموذج الأعلى للمحاكاة، من ذلك مثلاً حين عبرّ عن وداعة أهل عُمان التي تجلت في دخولهم الإسلام طواعية، في الوقت الذي كان غيرهم، يقف ضد الدعوة وهي في أول الطريق، فقال :

نحن اعتنقنا الدين دون مهنّد.. وله سعينا والطريق بعيد
وقريش تسخر بالنبي وتلتوي ...حسداً وتنوي قتله وتكيد
حتى أتينا المصطفى في داره ...سعياً وإنا مسلمون أسود
وقد نزلنا عنده في منـزل ...أبراجه في الطالعات سعود[1]

فقد استطاع النص الشعري أن يجمع بين صفتين متضادتين غير أنهما في هذا السياق متكاملتان : وتدلان على شعب عُمان، كونه شعباً دمث الأخلاق طيب

[1] ديوان أبي سرور م١ /٩٣.

السريرة كيف لا! وقد دخل في الاسلام دون أن يُكره عليه، لكنه في الدفاع عنه والدعوة إليه كان المثل الأعلى.

ونجد الشاعر، قد صاغ هذا المعنى، في اطار عبّر فيه عن غياب المهنّد في المرحلة الأولى، أما في المرحلة الثانية فوجد في الأزد نموذجاً حياً للمدافع عن بيضة الإسلام، وعندما يحدثك عن المكانة التي احتلها العُمانيون – بناء على ما تقدم – عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه، لكي يصفها ينتقل إلى ما سما وعلا من الطبيعة متمثلاً في السعود، وتلك درجة لا ينالها إلاّ من أعد نفسه الإعداد الأمثل حتى يكون بها حرياً.

وما دامت عُمان قد حققت تلك المكانة السامية، فإنه لا يرى من يناظرها : لأنها منقطعة القرين وحاول إقناع المتلقي بذلك فقال :

هذي عُمان ومن يعلو منابرها ؟...هل ناظر الشمس قنديل قد احتكرا ؟!

فقد أثبت الشاعر ان عُمان تتحدى بأسلوب منطقي يجعل الخصم يقر لها بالأفضلية والتفوق، وذلك يُستفاد من السياق الوارد في هذا التشبيه الضمني، وقد مثل الاستفهام الأول : إنكاراً، وتقرر هذا الانكار باستفهام إنكاري آخر بدت فيه ضحالة نور القنديل بالقياس [٢] إلى ضوء الشمس وذلك ضرب من قياس المساواة،

---

[٢] محمد رضا المظفر، المنطق مؤسسة مطبوعاتي قسم إيران

استطاع خلاله أن يباهي بعُمان ويفاخر وكان له ذلك، لانه تمكن من توظيف الطبيعة توظيفاً شاعرياً .

ونجده لا يفارق إطار الضمنية أسلوباً وإطار الطبيعة صورة لغوية فيقول عن عمان :

أبت لها غير قول الله قائدها ... من منذ أن أسلمت أو تفني العمرا
لا يخدعون، وإن بانت نواجذهم ... تبدي الرضي تلفهم إن يغضبوا شزرا[3]
ان تغضب الليث لا تغروك بسمته ... من ذا تقاوم ان الفيته زأرا

فقد عبر الشاعر عن تمسك الشعب العُماني بدينه تمسكاً لا يحيده عنه شئ إلا الموت، وعاد مرة أخرى ليؤكد أن دماثة الخلق المتأصلة في الشعب العُماني، لا ينبغي أن يفهم منها شئ، يُسيء إليه كونه يعامل الناس بالخلق الكريم، فقد صوّر الشاعر الثنائية الضدية في إطارها الواقعي معتمداً على وجودها في إطارها الطبيعي في أسلوب الضمنية، ووظف الطبيعة توظيفاً مضاعفاً بدا حين استلهم الصورة التراثية[4] وأعاد تصوير الصورة الطبيعية ، ممثلة هنا في الأسد حين يكشر عن أنيابه.

وتبعاً للافتخار بالوطن والاعراب عن مكانته التي احتلها عبر التاريخ، ينقل لنا صوراً مضيئة من التاريخ العُماني المجيد فيقول :

رضعنا لبان المجد منك على القنا ... وطلنا على العليا وكنا لها الفخرا
وجدناك نعم الامّ ربّت نسولها ... أسوداً تسود الدهر في قهره قسراً
سقتهم دم الأعداء وهو حليبها ... وقد أطعمتهم قلب من ركب الكبرا[5]

---

[3] أبو سرور م١/١١٠ - ١١١

[4] أعني قول المتنبي : إذا رأيت نيوُب الليث بارزة - فلا تظنن أن الليث يبتسم

[5] أبو سرور م١/٨٨

فالفخر والتحدي قد ظهرا صراحة – كما هو واضح في البيت الأول – تحاول توضيح ذلك المعنى، فوظف الطبيعة المتحركة ممثلة في تلك اللبؤة التي ولدت صنفاً خاصاً، ولا يتكرر دائماً ولا تنجبه جميع الأمهات (وهو الأسد السيد) [٦].
فكانت اللبؤة – كما ترى – معادلاً موضوعياً لما اراد الحديث عنه ويتكرر الأسد في شعر أبي سرور بصورة لافتة للنظر[٧] . ولا سيما عندما يتعلق الأسد بالفخر والتحدي.

الفخر بالمدينة الرمز :

كما افتخر أبو سرور بعُمان الوطن افتخر بالمدينة العُمانية في مناسبات تتعلق بتشييد مدرسة أو محكمة شرعية أو منافسة علمية بين المدارس، أو إصلاح يتعلق بالتربية المدنية، كالنظافة والمحافظة على الصحة البيئية وغيرها..
وفي سياق الحديث عن المدينة أو على لسانها، فإن الباحث يكتفي بنموذج واحد ممثلاً، في مدينة صحار وهي تحتضن هذا المهرجان الثقافي كيف لا ! وهي تحتفي بالشاعر أبي سرور وتخصص هذا المهرجان لنتاجه الشعري والفكري تعبيراً منا عن رد التحية كما قال تعالى :- [وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها او ردوها] قال أبو سرور على لسان مدينة صحار وهي تفتخر وتباهي :

هل على الكون من يناظر فخري ... عزّ قدري فلا نظير لفخري
كاد لولاي في الزمان كفاه .... بأبي المجد بين بر وبحر

---

[٦] قال الآخر : وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلبها طويل
[٧] ينظر المبحث الخاص بصورة الأسد من هذا البحث.

إنما الكون تحت امري غلام ... حيث أهوى وجدته طوع أمري
لم يكن بعد من يناظر مجدي ... وإلى الحشر لم يكن في التحري
لو تجليت للثـــريا لخـــرّت ... نحو قدري مع السماك وغفر

كل شوط رام السباق لشوطي ... قل كبا قبل أن اقدم مهري[8]
فالتمسني في كل مجد تجدني ... تاج عصري بدون شكٍ وشجر

لست تدري عُمان إني عُمانُ ... كيف تخفى الشموس عن نور بصر؟!
هذه، هذه صحار المعالي ... هل لها من منافس قال عذري[9]

فقد هزّت المناسبة الشاعر وحركته من أعماقه فجعلـــها منطلقـــاً ومنطقـــاً للتحدي والفخر، فعاد يذكر ماضي صحار المجيد وقد سطرته بأحرف من نور، تظل متلألئة على مر الدهور والعصور.

وحين نتأمل في سياق النص، نجد الشاعر قد اختار منها الالفاظ المشـــحونة بدلالة العظمة : الكون، البر، البحر، وهذه الألفاظ، لا تُحد بحيز معين بل يؤتى بهـــا مطلقة، تضاف لها الألفاظ الدالة على السمو : الثريا، السماك الشـــموس، وبهـــذا الاختيار أعرب الشاعر عن معاني العظمة ومعاني الرفعة في آن ولذلك تعزز الفخـــر والتحدي معاً، وفي المقابل وظف الشاعر الألفاظ الدالة على صنع القوي وأثره في من هو دونه، من تلك الألفاظ، تحت أمري، غلام خرّت، كبا ..

---

[8] أبو سرور م١/١٤١ – ١٤٢
[9] أبو سرور م١/٤١ أ – ٤٢أ

الشمس في إطار الفخر :

وظف أبو سرور الشمس وكاد أن يقصرها على الفخر بيد أن المتأمل في تصوير الفخر عبر الشمس، يجدها ترد في أساليب متباينة، يحددها السياق، فقد وردت في أسلوب النفي وفي أسلوب لاستفهام الانكاري، كما وردت مضافة أو مسبوقة بحرف جر، كما صاغها في اسلوب القصر وعندما أراد تصوير الأعلام ساقها في صيغة جمع التكسير عند المدح، أما عند التأبين فأسند القول إلى المستعار منها (الشمس) في الوقت الذى نفي ذلك على المستعار له وهو الشمس الممدوح أو المؤبّن.

أما توظيف الشمس في أسلوب النفي فقوله :

أيجهل الدهر ابطالا على صحم ... لا يجهل الشمس من بالنور يتصف[١٠]

وقوله من قصيدة عُمان واليوبيل الفضي :-

قابوس شكراً لما شيّدت من شرف...لا ينكر الشمس إلا ذو العمى الحاكي

فانصر بـبرك ديـن الله تُلف هنا ... نصر الميهمن نصراً سامياً زاكي[١١]

وأما في أسلوب الإستفهام فقوله :

لم يجهل النـاسُ ما نلناه من شرف... هل تجهل الشمسَ عينُ خوّلت بَصَر[١٢]

لسـت تـدري عمان اني عمان ... كيف تخفى الشموس عن نور بصر؟!

---

[١٠] أبو سرور م١/٢٥٩،٩٢أ

[١١] أبو سرور م١/٢١٠ – ١٤٢ – ٧٣أ – ٥٣أ وأنظر ٣٠١

[١٢] أبو سرور م١/٢١٠ – ١٤٢ – ٧٣أ – ٥٣أ وأنظر ٣٠١

وأما مشاهد الاضافة فقوله :

جئنا إلى ذروة العلياء تصحبنا...شمس الضحى قد تجلت من يد السحب[١٣]

وقوله :

مـــن ذا في الوجـــود مناظـــري ... ايضاً هى وجه الشمس نجم أجره[١٤]

أما الشمس في أسلوب القصر فقوله :

هل تختفي الشمس ما بين الوجود ضحىً ... إني أنا الشمس لاتخفى بأي رداً[١٥]

فقد جمع الشاعر في البيت السابق بين الاستفهام الدال على النفي وأسلوب القصر، ليؤكد فخر الداخلية على ما سواها من المناطق العُمانية الأخرى، حين حازت قصب السبق في مسابقة النظافة، وذلك سلوك حضاري يمارس في عمان وبه يُرى الوجه المضيء للمدن العُمانية.

وتأتي الشمس مستعارة للأعلام الذين مدحهم ورفع من قدرهم عندما أبنّهم، - كما أشرنا في السابق —

أن الشاعر لا يأتي بالشمس المستعارة مفردة ولا يتحدث عن أفولها كما يصنع مع الشمس الحقيقية.

---

[١٣] أبو سرور م١/٢١٠ — ١٤٢ — ٧٣أ — ٥٣أ وأنظر ٣٠١

[١٤] أبو سرور م١/٢١٠ — ١٤٢ — ٧٣أ — ٥٣أ وأنظر ٣٠١

[١٥] أبو سرور م١/٤٧٥ ةأنظر ٥٠٥

نقف على هذه المعاني في مثل قوله :

ومن لنا كإمام الضاد من رجل ... أبو وسيم[١٦] به العليا تهنّينا

إن تأفل الشمس لم تأفل شموسهم ... فانظر لتاريخهم تُلف البراهينا[١٧]

وقال يخاطب ولاية الرستاق :

ولم أنسَ أعـــلاماً عليك تألقـــوا ... شموساً على الأكوان مامسّها خِدر[١٨]

فقد استعار الشاعر لفظة (الشموس) للعلماء الذين مدحهم أو أبّنهم، وقـــد وصفهم بعدم الأفول مرة والتالق أخرى وحقق المثل العربي هذا التصوير الدقيق (لكل طامع أفول ولكل قادم قفول)، أما النجم فيأفل، وأما العالم فيعود- في هذا الســـياق إلى العالم الآخر لكن يظل ضوؤه ساطعاً، في النجوم التي ورثّها علماً وهـــذا إن دل على شيء فإنه يدل على رهافة حس الشاعر ودقة البيان العربي.

ومن هذا العرض الذي وقفنا فيه على توظيف الشمس في إطـــار الصـــورة البلاغية، وجدنا الشاعر قد أخذ اللفظة ثم شرع لها أساليب متباينة، أكدت مـــدى قدرة الشاعر على الحركة في إطار الأسلوب وذلك ضرب من التشريع على مستوى التراكيب ومستوى دلالة اللفظة في السياق.

---

[١٦] أبو وسيم هو الشيخ الفصيح اللغوي، الأديب أبو وسيم خميس و سليم الأزكوي ينظر ابو سرور أ/١/٣٣٧ هامش(١)

[١٧] أبو سرور أ/١/٣٣٧، ٤٦٥ وانظر أ/١/٢٤٦ – ٢٤٧، أ ٢/٣٩

[١٨] أبو سرور أ/١/٣٣٧، ٤٦٥ وانظر أ/١/٢٤٦ – ٢٤٧، أ ٢/٣٩

الثـــريـــــا :

وتأتي الثريا، في شعر أبي سرور بتصور عُمان ثقافة وحضـــــارة أي كيـــف كانت في الماضي وكيف هي الآن؟

أما عن عُمان الماضي، فإن الشاعر يصفها في إطار الصورة التي تبدو فيـــها – صحار – وهي تفتخر بعد التحدي الذي حققته في الماضي فيقول :

هل على الكون من يناظر فخري ... عزّ قدري فلا نظير لفخري
لو تجليت للثـــريـــــا لخـــرت ... نحو قدري مع السماك وغفر[١٩]

وأما ما حققته عُمان في عهد النهضة المبارك فإن الشاعر يجعل الثريا شـــاهدة على تلك الإنجازات وفي الميادين :

المجد مجـــدك والثريا تشهـــد ... قد كاد لولا أنت ليست تُوجـــَد
لو تُـــسأل العلياء منتسباً لها ... قالت عُمان – وهل سواها نشهدُ
لو لم يكن في الكون إلا كوكبي ... لكفى الوجود مكانة تستنجد
في كل تـــاج للتفـــوق خلتني ... عين التفوق والضحى لا يجحد[٢٠]

لم يكتف الشاعر بالثريا شاهدة بل استعان بغيرها مـــــن المعـــالم النورانيـــة كالكواكب والضحى. ونجده في مواطن أخرى يصور ما تنجزه عُمان بفضل قائدهـــا وراعيها السلطان قابوس حفظه الله، فيقول:

---

[١٩] أبو سرور أ/١/٤١أ، ٥١أ

[٢٠] أبو سرور أ/١/٤١أ، ٥١أ

إذا بنى الناس في ريف الثّـــرا مدنا ... بنيت فوق الثريا عرش أفلاك
كانما الكون لولا أنت ما نظروا ... له وجودا فلا مرقى لمرقاك[٢١]
دامت عمان كتاب الله قائدها ... سلطانها العدل حيّا ركبه الوطن
فلنشكر الله قد أعلى منابرنا ... فوق الثريا ولم يبرح لها العلن[٢٢]

فقد وظف الشاعر (الثريـــا) رمز العلا في إطار الفخر تصويراً للمنجـــزات التي حققها العمانيون قديماً والتي ما زالت تتحقق في أيامنا هذه وفي ظـــل القيـــادة الرشيدة لحضرة صاحب الجلالة.

الجـــوزاء :

وتأتي الجوزاء، في شعر أبي سرور رمزاً للفخر والتحدي لذلك ارتبطت بكـل ما له صلة بتحقيق الذات والانتصار على الآخر، وقد توزعت في نص أبي سرور بين الفخر والمدح كما وظفها في حث الشباب على التمسك بالعلم والأخذ بالأســباب المؤدية له، كونه طريقاً لتحقيق الذات، والانتصار على الآخر فيما من شأنه أن يكون سبباً لرقي الفرد والمجتمع، قال :

وطُلاب إذا زرعوا أجادوا ... وإن حملوا السيوف حموا رعيلاً
وإن قرأوا الكتاب بنوا عُلاءُ ... على الجوزاء يخـــتط السبيلا[٢٣]

فالشاعر يبين أن الطريق لتحقيق المعالي والوصول الى الجوزاء، لا يكـــون الا بذلك القانون الذي رُسم لهذا الأمة منذ أن بدأ الوحي يتنزل على المصطفى، وكـــان

---

[٢١] أبو سرور م١/١٣٧، ٢٤٦ ص ٢٥٩
[٢٢] أبو سرور م١/١٣٧، ٢٤٦ ص ٢٥٩
[٢٣] أبو سرور م١/١٣٧، ٢٥٨

أول ما نزل "اقرأ باسم ربك" فنحن أمة القراءة فاذا انشغلنا بها سدنا العالم وإذا تخلينا عنها كنا في ذيل قائمة الامم المتقدمة.

ويتضح معنى الاهتمام بالعلم والانشغال به عما سواه، في تلك الدعوة الكريمة التي يحض فيها أبو سرور على العلم فيقول :

فليس كالعلم إن شئت العُلى سُبلاً ... أو إن حداك لنحو الجنة الشغف
بالعلم نعرف بارينا ونعبده ... بالعلم يسعى الى الجوزا بنا الهدف[٢٤]

وحينما يذكر الطلاب بما صنع الآباء، أيام كانوا أساتذة الدنيا، فإنه يتخذ من الجوزاء، رمزاً لأولئك الذين اعترفوا بفضل الحضارة العربية الإسلامية، لأنهم تعلموا من علمائها وأفادوا منهم،فيقول :-

قد شيّدوا لِسماء العلم قاعدة ... يحبو لها الغفر والجوزاء لا السخف[٢٥]

واستمرارا لذلك الدور الذي قام به الآباء يتحدث عن دور المدارس اليوم بوصفها قلاعاً يعول عليها في مجال تحقيق الذات:

إن المدارس روح الكون دون مدا ... لولا المدارس ما طلنا لعلياك
بها علونا على الجوزاء وانفجرت ... خزائن الأرض، فضل الله يرعاك[٢٦]

---

[٢٤] أبو سرور م١/١٣٧، ٢٥٨

[٢٥] أبو سرور م١/٢٥٩،١٨٧

[٢٦] أبو سرور م١/٢٥٩،١٨٧

وهكذا ترى أبا سرور يوظف الجوزاء ليجعلها هدفاً تشرئب إليه الأعناق او تطؤه الأقدام[٢٧] وقد تكررت الجوزاء لهذا الغرض، في مواضع من الديوان[٢٨].

وأما في غرضي المدح والرثا فوجدنا الشاعر يوظف الجوزاء، تصويراً لأولئك الأعلام الذين أنجبتهم عُمان، من ذلك مثلاً حين افتخر بسمائل كونها معقلاً من معاقل العلم في عُمان:

سمائل تنبت الأعلام ما برحت ... ميمونة تنجب الأبنا ميامينا
حبراس لو تذكر الماضي وأمته ... شدنا على هامة الجوزا سلاطينا[٢٩]

ويقول في موضع آخر مشيداً بعالم من علماء عُمان :

ولا تنسنى من آل سعد محمداً ... حداه إليك العلم لا ذاده الهجر
فأنزلته الجوزاء وهي مكانه ... فما بارح الرستاق أو ضمه القبر[٣٠]

وهكذا ارتبطت الجوزاء، في شعر أبي سرور بالعلم وبكل ما له علاقة به، وفيما يتصل بالصورة، نجد الشاعر بفاضل بين الصورة المطلوبة وهي الصورة المثال والصورة المتجاوزة ويكشف الدارس المتأني هذا الفرق الكائن بين حرفي الجر المستعملين مع الجوزاء أما في الصورة الأولى (الصورة المثال) فيأتي الشاعر بالجوزاء مشفوعة بحرف الجر (إلى) كونها غاية.

---

[٢٧] قال الشاعر الجزائر محمد العيد آل خليفه في هذا المعنى : إن الشباب إذا سما بطموحه ... جعل النجوم مواطئ الأقدام

[٢٨] ينظر أبو سرور م١/١٩٧، ٢٤٥، ٢٧٤

[٢٩] أبو سرور م١/١٦٧، ينظر ص ١٦٨

[٣٠] أبو سرور م١/١٦٧، ينظر ص ١٦٨

أما في الصورة المتجاوزة، فإن الشاعر يأتي بالجوزاء في إطار السياق – مدحاً أو فخراً – بحرف الجر (على) التي يؤتي بها للاستعلاء المجازي.

عالم البحار والأحجار الثمينة :

تمثل البحار والمعادن والأحجار الثمينة القسم الثاني من الطبيعة الجامدة في شعر أبي سرور:

أولاً : – البحر :

تظل صورة البحر حاضرة في ذهن الشاعر ولا تكاد تفارقه كلما دعت المناسبة، فمثلا عندما أقيم ذلك السباق الذي خُصص للمحافظة على البيئة بين المدارس تحسيساً للطلبة وتربيتهم على الحس المدني للحفاظ على الصحة البيئية وتبعاً لذلك صحة الإنسان العماني، فلفت الشاعر النظر إلى البحر يوم الاحتفال – بمن حاز قصب السبق – كونه مصدراً لفوائد جمة فقال :-

يا راكب البحر والأمواج تؤنسه يسعى لما يتمنى من يد الطلب
كم ماخر لجج الأبحار هيجه شوق الأحبَة حتى مرفأ الطلب
وسابح في تجارات يقدمها إلى مواطنه براً وللنشب
وخائض بأساطيل الوغى بطل يحمي الحمى ويدك الخصم بالشهب
كم دُرّ تاج على كسرى وإخوته من الملوك من البحر الخضم جُبي
ولؤلؤ بنحور الغانيات حظى لو خاله قيصر من حسن ذاك سبى
وكيف ننسى لذاك الحوت نأكله لحماً طرياً فخذ ما شئت وانتخب
إن البحار طريق للوصول إذا ما عزنا طلب بالخيل والرّكب
من لم يحافظ على نعماء خُوّ لها ما خال ما يتمنى دون ما تعب[٣١]

[٣١] أبو سرور م١/١٦٧، ينظر ص ١٦٨

فقد جمع الشاعر، في هذ الابيات بين وظائف كثيرة يمارسها الإنسان في البحر وعبره، فضلاً عن المتعة بوصفه مصدراً من مصادر الجمال الإلهي، ولهذه الأسباب وغيرها دعا الشاعر إلى المحافظة على البحر[٣٢].

وإذا كان البحر مصدرا من مصادر التصوير عند الشاعر فكاد أن يقصره على العلم والعلماء، بوصفه وسيلة إيضاح لا تعوض بغيرها في مجال العلم والعلماء، من ذلك قال يحيي بلاد العبريين:-

لو شئت أذكر أعلاما من العُلما ... منها وذا البحر حبر ما وافى كتبي
كأنما العلم عبري إذا انتسبت ... شم المفاخر للأحساب والنسب[٣٣]

وعندما أراد التعبير عن دور العلم براً وبحرا وجواً كنّى عنه بالقلم فقال :

أقلامنا ثروة أقلامنا دول ... أقلامنا مدفع المظلوم إن تسل
في البحر غواصة في الجو طائرة ... في البر دبابة في البنك كنز ملي[٣٤]

فقد أحاط الشاعر بالميادين التي لا يمكن أن تغزى إلا بالعلم ويستحيل الوصول إليها من دونه. ويطول عرض البحر في سبيل لإعطاء تلك الصورة الكاشفة، عن تلك العلاقة الكائنة بين العلم والبحر وتلك القيمة التي لا تضاهى حين تثّمن الأشياء.

---

[٣٢] أبو سرور م١/١٦٧، ينظر ص ١٦٨

[٣٣] أبو سرور م١/١٧٣، ينظر ص ٢٥٢

[٣٤] أبو سرور م١/١٧٣، ينظر ص ٢٥٢

البحر والحرب : إلى جانب تصوير مكانة العلم والعلماء صوّر ابو سرور البحر بوصفه شاهداً على ما يصنعه الأبطال في وطننا العربي.

وإذا اعتنى الشاعر بصورة البحر الممثلة للجلال فإنه لم ينس صورة البحر المتعلقة بجانب الجمال منه من ذلك قوله :-

والبحر من حولنا باتت تداعبه ... نسائم الأنس حتى ظن مجنونا[٣٥]

وبهذا ترى أن البحر مثل مشهداً او صورة نقل عبرها معالم شتّى، وكلها تتصل بحركة الإنسان في هذا الوجود ليحقق ذاته بفكره وعقله أو بحركته الدائبة في هذا البحر بحثاً عن رزقه.

وتجدر الإشارة الى أن الشاعر مثلما وظف البحر استعمل روافده كوسيلة من وسائل الإيضاح ومنها : **النهر والوادي**[٣٦].

المعادن والأحجار الثمينة :

١) المعادن :

تمثل المعادن في عالم شاعرنا جانباً هاماً ولذلك وظفها في إطار الصورة التي نقلها، خلال هذا المعدن أو ذاك فمثلاً عندما أراد تصوير الغبي كونه كَلاًّ على مولاه ولا يجدي منها نفعاً فقال :

سليه هل رأى للنوم حدا ... وهل خور تعقر طاب وردا

فأرض الملح لم تنبت كلاء ... ولم ينفع حديدك حين يصدا[٣٧]

---

[٣٥] أبو سرور م١/٢٣٠.

[٣٦] نفسه ينظر م١/١٨٣، ١٥١، ١٦٩، ٣٠٩، ٣٣٩.

[٣٧] أبو سرور م٢/٢٦٣

فلقد بين أبو سرور أن الأرض المالحة غير صالحة للإنبات وكذا الحديد حين يتأكسد فلا جدوى منه .. وذلك تصوير للغبي كونه لا ينتظر الناس منه نفعاً، وكما لا يخفى فقد ساق الصورة في إطار الضمنية وذلك ضرب من الأسلوب المقنع كما رأينا من قبل ابي سرور.

وكما ساق أبو سرور الحديد والملح وظف الفولاذ وجاء به قياساً موضحاً ونقف على تصويره البديع في قوله :

بنت لنا أمس آباء علا وإبا ... ونحن باليوم والأبناء لما سترى
لم يخرج العود إن تحرق جوانبه... إلا الرياحين طيبا أنجب الأمرا
والبدر لو بمحاق يبتلى بسرى ... لعاد بدراً على الآفاق مزدهراً
مثقال ذر من الفولاذ تملكه ... أشفى من النوم لو عالي السما قدرا

فقد جمع الشاعر بين معالم شتى من الطبيعة، معالم تتعلق بالنبات وأخرى بالورود والرياحين وثالثة تتصل بالعالم النوراني ورابعة بالمعادن، هذه مجتمعة ساقها في أسلوب التشبيه ليبين قيمة هذا المعدن (الفولاذ) ويفضله على غيره، وقد دل هذا على اتساع معجمه اللغوي وقدرته العقلية معاً.

٢) الأحجار الثمينة :

الدر واللؤلؤ : حين ذكر الشاعر بالبحر وتحدث عن خبراته التي لا تحصى ضرب الدرّ واللؤلؤ مثلاً فقال :

كم دُر تاج على كسرى وإخوته ... من الملوك من البحر الخصم جُبي
ولؤلؤ بنحور الغانيات حُظي ... لو خاله قيصر من حسن ذاك سبي[٣٨]

وذكر المرجان حين ثنى على أهل صحم فقال :

أيجهل الدهر أبطالاً على صحم ... لا يجهل الشمس من بالنور يتصف
كم قدموا البر في شتى مواقفهم ... والبر إنتاجه المرجان لا الخزف[٣٩]

فقد صور الشاعر مواقف الأبرار، أنها لا تنتج إلا ما يشرف أهلها، فصاغ تعبيراه في إطار صورة فنية ممثلة في المرجان بوصفه نموذجاً لكل ما هو نفيس وثمين في جنسه.

ونجده في موضوع آخر يوظف العسجد والزبرجد قال يصف دمشق :

هل في دمشق وهل لي في مغانيها ... أنشودة كنت أخفيها فأبديها
أم فيك با بردي أنشودتي وجدت ... والماء يبعث للضمآن ترفيها
أم في رياض ربت هلهلت عسجدها ... زبرجداً وفنوناً لست أحصيها[٤٠]

والعقيق من الأحجار الكريمة التي وظفها الشاعر، ساعة كان في دمشق، تذكر عُمان فقال:

أتحسبون بأني ما بكيت دما ... سلوا العقيق كفى بالعدل تنزيها
ليس العقيق وقد سالت اباطحه ... إلا جفون مشوق سال قانيها

---

[٣٨] أبو سرور م١/١٦٨، ٢٥٩

[٣٩] أبو سرور م١/١٦٨، ٢٥٩

[٤٠] أبو سرور م١/٣٠٣

فقد جاء بحجر العقيق شاهداً على معاناته النفسية حين ذكر وطنه وهـــاج بالبكاء، لقد ضرب الباحث امثلة استعملها الشاعر من المعادن والاحجار الثمينة على سبيل التمثيل لا الحصر، لأن للشاعر معجماً لغوياً مثلت الطبيعة المتحركة والجـامدة قسماً كبيراً منه وسنتحدث عنه في حينه والذي يعنينا من هذا التمثيـل أن الشـاعر وظف المعادن في مواضعها، وكان يتمتع بحس مرهف ولغة أخاذة لا غموض فيـها، وبأسلوب مقنع. وكل ذلك ساهم في إبراز عالم الشاعر وآفاقه التي يسبح فيها بحثـاً عن الجمال كونه غاية يجب أن تدرك، في فن الشعر، ويتجلى دور الشاعر في نقـل ذلك الجمال الطبيعي **عبر اللغة والصورة والخيال.**

الطبيعة من مصادر الصورة:

الأســـد :

عندما أراد أبو سرور أن يعالج واقع الأمة العربية البئيس، فلم ير غير الجـهاد طريقاً الى إثبات الذات وإرغام العدوعلى ترك الأراضي التي أخذت عنوة. وانطلاقـاً من مبدأ الجهاد الذي آمن به حرّض العرب على القتال ورأى فيـهم مـن هـو في شجاعة عليّ وإقدام عمر، فقال يحرض على الجهاد ونقل صورة الأسـد بوصفـه النموذج الأمثل في مثل هذا الموقف:

ما أطلق الحر من أغلال من ظلموا ... إلا النضالُ إذا ما اشتدّ والتهبا
من هاب أعداءه يستعبدوه ضحّى ... لا يقرب الذئب بيت الأسد لو رغبا
والجبن ليس يطيل العمر من رجل ... والحرب لا تنقصُ الأبطال ما كتبا[٤١]

[٤١] أبو سرور م٢/٤٦.

ونجده في موضع آخر، يصور البطل العربي أسدا يعول عليه في الظـــروف العصيبـــة فيقول :-

الم تدر أسد الله لم يُوه نابها ... لو اضطرها دهر وأورى بها زند
سنكسر أغلال العدو بلا ونى ... فإن بني الآساد لو حكموا أسدُ
ومن طاف غابات الأسود معاديا ... فلا رجعت منه إلى اهله زندُ

فقد تكرر لفظ الأسد في هذا السياق تكراراً دالاً على ما يحقق صولة الأسد!
وعندما أراد أن يصور لحظة زهوه وافتخاره فجعل صورة الأسد تلخص حالته تلـــك وتوضحها فيقول :

وإني وإن قالوا فتى من قلائل ... فخور لأن الأسد يوم الوغى نزر[٤٢]

وجاء بالأسد صورة تؤكد أن القانون الكوني الإلهي مضطرد، لا يتغير فقال :-

من نال من ابه يوما شهامته ... ما فاته منه شئ في محياك
لا تنجب الأسد في غاباتها أبدا ... إلا الأسود فهني اليوم يمناك[٤٣]

---

[٤٢] أبو سرور م٢/٢٩٥.

[٤٣] ابو سرور م١/٢١١، ١٦٣ وانظر م٢/٢٤٨

وتتمة لهذه الصورة قال يحيي الكشاف العماني:

أهلا بكشافنا الراقي في منصتنا ... ليثا يقود لنا النعماء والظفرا[٤٤]

وكما صور ابو سرور البطل العربي من خلال الأسد تحدث عنه وهو يتقاعس عن دوره فجاء بالصورة المعاد له لذلك فقال :-

إن الضفادع إن تنم اسدُ الشّرى ... قد تستخف بصولة الضرغام[٤٥]

والمعنى أن الحشرات الآدمية لا تتحرك ولا تبرز على الساحة في غياب الأقوياء.
وصورة الأسد في شعر ابي سرور تمثل اسلوبية حاول من خلالها تصوير الصراع العربي مع العدو الغربي.

الذئب :

حيوان كثير الغارات وحيل وصبر على المطاولة وقلما يخطئ في وثبته[٤٦] وقد أولاه الشعراء القدامى حظاً وافرا في شعرهم وكانوا يجعلون من الذئب الجائع ضيفاً يقرونه ويانسون به[٤٧].

وعندما نأتي الى أبي سرور ونسأله كيف تعامل مع الذئب في شعره فنجده يوظفاً هذا الحيوان توظيفا دالا على معرفته الثقافية، وليست معرفة معاملة أو

---

[٤٤] ابو سرور م١/٢١١، ١٦٣ وانظر م٢/٢٤٨

[٤٥] ينظر أبو سرور م١/٢٤٩، ٢٧٣، ٢٨٢، ٣٤٩، ٤٦٧

[٤٦] عبدالله بن محمد بن عباس الزاهد، عجائب الملكوت ص ٢٨٥ دار الرسول الاكرم، بيروت ١٩٩٨.

[٤٧] د. نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٦٣-١٦٦ . مكتبة النهظة ط ١٩٨٤٢ بيروت

معاشرة، موظفة بوصفه معادلاً موضوعياً للعدو، لذلك "استعمل الشعراء لفظ الذئب على سبيل المجاز وقصدوا به السفهاء من الناس أو العدو المتمكن"[٤٨]

وفي هذه ا المعاني وظف أبو سرور الذئب رمزاً للعدو ومكره وخداعه فقال في (بكاء الأقصى)!

كم مرضع يبكي أباه وأمه ... قتلا فيبقر بطنه المجدوب
فتظل تأكله الكلاب على الحصى ... وكأنه سخل رماه الذيب
والمسجد الأقصى ينادي أهله ... يا مسلمون ايترك المغصوب[٤٩]

وفي ذلك المشهد الذي يستعين فيه الأخ بالعدو على أخيه يجد الشاعر في الشّاه تحتمي بالذئب فماذا عساه يصنع بها :

ومن يتجند بالعدا ضد شعبه ... أطيح به لونا صرته العوالم
إذا استنجدت بالذئب شاة سمينة ... أطاحت بها أنيابه وهو باسمُ[٥٠]

فقد نجح أبو سرور في نقد واقع مؤلم بطريقة ساخرة وفي أسلوب فني بديع وحذر مرة أخرى من الذئاب (الآدميه) لأنه لا يؤمنُ لها جانب كونها خادعة وغادرة

من أمن الذئب ان يرعى غنما ... افنى لها لحمها والجلد والعصبا

---

[٤٨] د. نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٦٣-١٦٦ . مكتبة النهظة ط ١٩٨٤٢ بيروت

[٤٩] أبو سرور م٢/٢٣

[٥٠] أبو سرور م٢/٢٩

وواقع الأمة خير شاهد على هذا التصوير الجميل فينا والمؤلم واقعا.

ومما سبق اتضح أن الذئب، في شعر ابي سرور لم يأت عرضا، بل وظفه توظيفاً واعياً صور من خلاله الصراع الدائر بين العرب وأعدائهم ايام الاستعمار واليوم مع العدو الإسرائيلي، كونه محوراً يدور حوله أعداء العروبة والإسلام وقد نجح في هذا الإسقاط من جهة وإخراج الصورة وإظهار صورة الأسد ارتبطت بالمدح. وأما صورة الذئب فقد لخصت جانب الهجاء والإستهجان.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستعمال، على هذا النحو تأكد في شعر شوقي[٥١].

الخاتمة :

أما بعد فقد توصلت الدراسة الى أن الشاعر لم يعتمد اللغة المعجمية أو اللغة في درجة الصفر بل استند الى اللغة الشاعرة كونه يأخذ اللغة العادية ليضيف اليها، ولذلك وجدنا أبا سرور يسهم بشكل واضح في إثراء اللغة على مستوى التشريع اللغوي ممثلاً في استعارة الألفاظ، يضاف الى ذلك إثراء على مستوى التراكيب، ممثلة في الأسلوب الضمني وقد ساقه في بعض الصور على غير العادة، ومثل هذا النوع من التشبيه في شعره ظاهرة أسلوبية.

أما المعجم اللغوي للشاعر، فقد وجدناه معجما غنياً، جمع فيه بين مفردات كونية تتعلق بالسماء وما فيها من نجوم وشموس وأقمار وشهب وبرق وسحب وعندما يستعين بما في الارض من أشياء تعينه على التصوير والتوضيح فالإقناع، تجده قد أضاف إلى معجمه الشعري، ما يدل على سعة اطلاعه وخصوبة ثقافته، فحين يوظف ما اتصل بعالم الزراعة وما اتصل بجمال الطبيعة وكأنه متخصص في عالم

---

[٥١] ينظر د/ محمد الطرابلسي، خصائص الأسلوب في السوقيات ص ١٧٦ – منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١.

الزراعة ذكر أنواعا من الأزهار، وكثيراً من الطيور وإذا انتقل إلى الفيافي حدثك عن سباعها وضباعها في إطار الصورة التي يرسمها، وينسحب هذا الوصف على عالم الفواكه والمحاصيل الزراعية الأخرى.

أما عالم البحار (فاسأل خبيراً) فقد حدثنا عن كل ما هو نفيس فيه. والجدير بالملاحظة أن الشاعر وهو يصنع هذا كله لم تغب لغة الفقه عنه وأثر الحديث والقرآن الكريم والشعر العربي، فضلاً عن استعماله المصطلحات النحوية، صاغ أبو سرور كل ذلك في أسلوب محكم وصورة جميلة ولغة سهلة رقيقة في الغزل قوية في الفخر.